وأزالَ خيلكم عن مسالِحها[1] . ولقد بلغني أنَّ الرَّجلَ منهم كان يدخُلُ على المرأةِ المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزِعُ حِجْلَها وقُلْبَها ورِعاثَها[2] ، ما تُمْنَعُ منه إلاَّ بالاسترجاعِ والاسترحامِ[3] ، ثُمَّ انصرفوا وافرين[4] ، ما نالَ رجلاً منهم كَلْمٌ[5] ، ولا أُريقَ لهم دَمٌ ، فلو أنَّ مسلماً ماتَ من بعد هذا أسفاً ما كانَ به ملوماً ، بل كانَ به جديراً .

فيا عَجَباً ـ واللهِ ـ يُميتُ القلبَ ويجلِبُ الهمَّ ، اجتماعُ هؤلاء القوم على باطلِهم ، وتفرُّقُكم عن حقِّكم ، فقُبْحاً لكم وتَرَحاً[6] ، حين صِرْتُم غَرَضاً يُرمى : يُغارُ عليكم ولا تُغيرون ، وتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُون ، ويُعْصَى اللهُ وتَرْضَون .

فإذا أمرتكُم بالسَّير إليهم في أيام الصَّيف قلتُمْ هذه حمَّارةُ القيظ[7] ، أمْهِلْنا يُسَبِّخْ عنَّا الْحَرُّ[8] ، وإذا أمرتكم بالسَّير إليهم في الشِّتاء قُلتُمْ هذهِ صبَّارة القرّ[9] ، أمهلنا يَنْسَلخ عنَّا البردُ ، كلُّ هذا فِراراً من الحرّ والقرّ ، فأنتم ـ والله ـ من السَّيف أفرُّ .

يا أشباهَ الرِّجالِ ولا رجالَ ، حُلومُ الأطفالِ وعُقول ربَّات الحِجال[10] ، لَوَدِدْتُ أنِّي لم أرَكُم ولم أعرفكم ! معرفةٌ واللهِ جرَّتْ نَدَماً وأعقبت سَدَماً[11]

---

(١) المسالح : ج مسلحة : وهي التعر أو المرقب حيث يختبى مجيء الأعداء .

(٢) الحِجْل : الخلخال . القُلْب . السِّوار . الرِّعات : ج رعثة : القرط .

(٣) الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء .

(٤) وافرين : تامين .

(٥) الكلم : الجرح .

(٦) الترح : الهمّ أو الفقر .

(٧) حمَّارة القيظ : شدَّة الحرّ .

(٨) يسبخ : يخف ويسكن .

(٩) صبَّارة القرّ : شدَّة البرد .

(١٠) الحجال : ج حجلة : قبَّة تضرب للعروس . وربَّات الحجال : النساء .

(١١) السدم : الهمّ مع أسف أو غبط .